كتاب التمييز في المحاضرات

مخطوط للامير حسين
ابن الامير فخر الدين المعني

بقلم عيسى اسكندر المعلوف مؤلف تاريخ الاسر الشرقية ، وصاحب مجلة الآثار

تمهيد

كنت اول من نشر صورة الامير فخر الدين الثاني المعني ، وسيرة حياته المطوَّلة ، معتمداً على ما كتبه مؤرّخو الافرنج والترك والعرب ، ولاسيما تاريخ الشيخ احمد الخالدي الصفدي المخطوط في خزانتي ؛ وذلك في مجلتي «الآثار» ، بالمجلدات الاول والثاني والثالث ثم في الخامس ؛ وعثرت على صورة زوجته ، وفارس من فرسانه ، ومعسكره ، ونحو ذلك.

فلمّا رأيتُ المادّة وافية في تاريخه ، اردت توسيع ذلك البحث المفيد ونشره في كتاب على حدة ، تعريفاً لشؤون حكم الامير المعني في اثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاد . وعرفت ، من الكتب المتعلقة به ، « مجموعَ الاحزان » في مراثي والده الامير قرقماز المعني الذي مات متأثراً ممّا حدث له باتّهامه المعلوم ؛ و « كتاب التمييز في المحاضرات » لولده الامير حسين الذي استبقي حياً في الاستانة بعد قتل والده واخوته ؛ فضلًا عن الكتب المؤلفة فيه « كتاريخ اللبناني » الذي يظنّه بعضهم انه معتمده الشيخ ابو نوفل الخازن ؛ و « هندسة البناء » باقتراحه تأليف البطريرك جرجس عميره الاهدني ؛ و « مدائحه » التي ذكرها المحبي في خلاصة الاثر . فارجو ممن يعرف شيئاً من هذه الكتب ان يفيدني عنها فاكون له من الشاكرين.

فسعيتُ للحصول على هذه الكتب فوفّقتُ الى احدها ، وهو « منتخبات

من كتاب التميز » لولده المذكور ، الذي سماه الاتراك « حسين بك ». فتكرّم عليَّ بنسخة مصوّرة بالشمس من « الخزانة الملكية » في القاهرة ، حافظ القسم الافرنجي ، صديقي الاستاذ توفيق بك اسكاروس القبطي ، المعروف بادبه واطّلاعه ، نزيل لبنان في هذا الصيف ؛ وحملها اليَّ معه . ثم استنسخ لي نسخة ثانية بالقلم نسيبي القائمقام العسكري اسعد بك المعلوف ، نزيل لبنان ايضاً ، وحملها اليَّ معه . فاشكر لهما غيرتهما العلمية . واقول كلمتي في هذه النسخة .

كتاب التمييز في المحاضرات

يظهر من مباحث النسخة التي وقفتُ عليها انها جزء صغير من كتاب مطوّل في الآداب والاخلاق ، فنبهتُ حضرة مدير « الخزانة الملكية » في القاهرة الى الحصول على المطوّلة الموجودة في « خزائن الاستانة » ، فكتب اليَّ انه ارسل يستنسخها ولعله يتوفق الى ذلك .

ان « منتخبات التميز » المذكورة الآن هي عبارة عن ثماني وعشرين صفحة بقطع الثمن ، في مجموعة ٨١ من صفحة ٢٢٩ — ٢٤٠ ، ذكرها برنامج الخزانة في طبعته القديمة الاولى (٧ : ١١٦) واليك وصفها :

رتبها المؤلف ابواباً هكذا : في مدح العقل . والعلم والحلم . والحياء . والصبر . والمشورة . والشجاعة . والادب . والصمت . والفقر . والغنى . والقناعة . والاصدقاء . والعزلة . والوحدة . والعقاب . والزيارة . والهدية . والجود والسخاء . وصيانة المال . والبخل . والتجارة . والنساء والعيال . والتزويج . والسفر والغربة . والشباب . والشيب . والمرض والاسقام . والموت . وهو ختام الكتاب كما انه ختام الحياة في هذا العالم .

والنسخة بخط نسخي عليه مسحة من الطلاوة وضبط بالحركات المهمّة ، في كل صفحة ٢٥ سطراً .

مؤلف التمييز

هو الامير حسين ابن الامير فخر الدين الثاني المعني الشهير ، وُلد سنة ١٠٣٠ هجرة (١٦٢٠ مسيحية) ؛ ووالدته ابنة الامير علي سيفا شقيق يوسف

باشا سيفا حاكم طرابلس الشام وضواحيها . فلما قدم الوزير خليل باشا بيروت باسطوله العثماني سنة ١٠٣١هـ (١٦٢١م.) ارسل اليه الامير فخر الدين ولده حسيناً وهو ابن سنة ، وبمعيته الميرة والاقامات . فسرّ الوزير به لذكائه ، وهو في المهد ، واحبَّه كثيرًا لجمال صورته . وبقي يذكر هذا الطفل ويحنُّ الى لقياه كبيرًا.

فلماً جاء جعفر باشا امير الاسطول العثماني سنة ١٦٣٤ مسيحية ، محاصرًا قلعة المرقب (قرب اللاذقية) ، اسرهُ منها مع مدبّره الشيخ ابي نوفل الخازن ، وارسلهما الى الصدر الاعظم خليل باشا المذكور في حلب ، ففرّ الخازني الى بلده متنكرًا ، والامير حسين صار في قبضة الصدر . فسرّ به وحافظ عليه ، فادخله في خدمته ، ونقله معه الى الاستانة . فتلقى العلوم في مكتب غلطه ، ونقل الى قصر السلطان الكبير ، ثم الى «خاص اوطه» ، مترقياً في الرتب السلطانية في داخل القصر العثماني ، حتى صار كتخدا الخزينة السلطانية . وعرضت عليه رتبة الوزارة فرفضها. ثم صار برتبة كتابة الدولة «الخواجكانية» فتولَّى مناصب كثيرة حسب عادة اصحاب هذه الرتبة ، والَّف كتابه «التميز في المحاضرات والادبيات.» وارسله السلطان محمّد خان ، ابن السلطان ابرهيم خان ، سفيرًا (ايلجياً) الى سلطان الهند . فمرَّ بصيدا في ساحل البحر ، ولاقاه نسيبه الامير احمد المعني خاتمة هذه الاسرة المعنية ، والامراء الشهابيون حكام وادي التيم ، واجتمعوا به في حاصبية . وعرضوا عليه حكم البلاد فلم يقبل . وسار الى الهند فاتمّ سفارته ، وعاد مكرّماً ناجحاً الى الاستانة مشهورًا بحنكته.

ولما توفي الامير احمد المعني ، وارادوا نقل الحكم الى انسبائه الشهابيين ، اعترض الامير حسين على تعيين الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي امير راشية لأنه ابن شقيقة الامير احمد المعني ؛ وقرّر ان حقّ وراثة الحكم هو للامير حيدر ابن بنت الامير احمد المعني ؛ فعملت الحكومة برأيه الصوابي . وعندي اوراق من العلّامة السمعاني تثبت هذا الرأي ، ارسلها الى لبنان في تلك الايام.

وكان المؤرخ العثماني نعيما الحلبي قد اتصل بالامير حسين هذا ، وعرف منه

اشياء كثيرة عن اسرته ووالده ، وحوادث لبنان ، فكتبها في تاريخه وترجم له مثنياً على آدابه ، وذاكراً من مؤلفاته « التمييز » هذا ، و « تاريخ في تراجم علماء عصره » ، وهذا لم نعرف عنه شيئاً بل نرجح وجوده في خزائن الاستانة الغنية بمؤلفاتها ونوادرها .

وكان هذا الامير متضلعاً من اللغتين العربية والتركية ، عارفاً بشؤون البلاد ، يغلب عليه التقى والصلاح وله منظومات وقفت على بيتين منها وهما :

رأيتُ العقل ينفع وهو قصدٌ ويرمي في المهالك اذ يزيدُ
كمثل الماء يروي منه قدرٌ ويُهلك منه بالغرق المزيدُ

وتوفي في الاستانة سنة ١١٠٩هـ (١٦٩٧م) رحمه الله .

مختارات من منتخبات التمييز

فمما اورده المؤلف الامير حسين في باب العقل قوله : العقل هو قوة وغريزة اودعها الله في الانسان ليتميز عن الحيوان بادراك الامور النظرية . وقيل : انه نورٌ يقذف في القلب ليستعدَّ به[1] لادراك الامور والعلوم العقلية . واشتقاقه من العقل بمعنى المنع ، ومنه العقال لمنعه الانسان عما لا يليق . وهذه القوة تتفاوت بالشدة والضعف ، وتزيد بامور مكتسبة بالتجربة ومخالطة العقلاء .

وقيل : ان العقل نور الروح ، وان العقل لسان الروح ، وترجمان البصيرة ؛ والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان ؛ ولكل شيء جوهر ، وجوهر الانسان العقل .

والحق ان العقل روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية ، وبه يمتاز الانسان من سائر الحيوان . غير ان للعقل آفات منها الهوى ، وهو اغمض مسلكاً في الحيوان من الروح في الجثمان واهلك للنفس من النفس . روي ان الحسن البصري كان يقول : لو كان للناس كلهم عقول لخربت الدنيا .

وفي باب الحلم — هو ملكة الطمأنينة عند محركات الغضب ، وعدم

١) في الاصل ليستعذبه والأولى ما ذكرناه هنا

هيجانه الّا بسبب قوي وقمه عنده بلا تعب ، ويثمر اللين والرفق. وهو افضل من كظم الغيظ ، لان من يحلم بعد هيجان الغضب محتاج الى مجاهدة كثيرة ، والحلم عند الهيجان ؛ وهو دالّ على كمال العقل وانكسار قوّة الغضب وخضوعه للعقل ، وقد امر الله عِباده بالحلم بقوله تعالى: وقولوا للناس حسناً : كمال العلم بالحلم وكمال الحلم بالعلم.

وقال صاحب النوادر والاصول: الحلم سَعَة الاخلاق ، فاذا توسّع المرء في اخلاقه ولم يكن له علم ، افتقد الهدى ، فيحتاج الى علم يقف به على الحدود ؛ واذا كان له علم ولم يكن هناك حلم ساء خلقه وتكبّر بعلمه ، لان العلم له حلاوة ولكل حلاوة شِرَّة ؛ فاذا ضاقت اخلاقه لم ينتفع بعلمه لان ضيقه يرمي به الى شره النفس وحدّتها ، فيكون صاحب عنف وخرق في الامور فعندها ضاع علمه فالواسع في اخلاقه حرٌّ عن رقّ النفس (شعر).

العلم والحلم حلّتا كرمٍ للمرء زين اذا هما اجتمعا

وفي باب صيانة المال — وكان يقال الممسك اعذر من الظالم بالفعال . لا عتب على من استبقى ماله ليصون به وجهه وعرضه عن مسألة الناس والاحتياج اليهم . قال حكيم : الحاجة الى الناس عذاب عاجل وبلاء نازل.

وفي باب السفر والغربة — وجاء في الحديث : العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فاين ما وجدت الخير فأقم واتقِ الله. وكان الحسن البصري يقول: من كان مع الله فليس عليه غربة . لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ، ان الله بالمسافر رحيم. وقال جالينوس: السفر يشدّ الابدان ، ويشهي الطعام ، ويطارد الاسقام.

***

هذه لمعة من كتاب لابن حاكم لبنان في ذلك العهد ، تدلّ على آدابه ، وكرم محتده ، وجودة اخلاقه . وهي صفحات من كتاب تاريخ والده « الامير فخر الدين المعني الثاني» الذي سيظهر باول فرصة مدبجاً بصور رائعة ، ومباحث مفيدة ، والله الموفق !

زحله (لبنان) في ٢٠ آب سنة ١٩٢٩